

مستحيلة بين الماضي والحاضر، ودون أن يعمل على ضبط المحصلة المركزية في التراث، أي الجوهر الأصلي للمعرفة العربية الإسلامية، وربطها بالمعرفة المعاصرة وليس بتحكيما واعتبارها هي أصالة وسواها نافل، دخيل ومجلوب، وحركة الإصلاح اعتبرت الغرب دخيلاً، فرفضت أن تغترب فيه لتغترب في مساحة معرفية من الماضي، ثم تنتقل أو تنقل، مرة أخرى، تلك المعرفة لتجعلها، بدورها، تغترب في حاضر" (6)،

ما السر في هذا الموقف؟ هل كان نتيجة التوجه النخبوي للفكر العربي المعاصر؟ أو نتيجة من نتائج تفاعل الأنا مع الآخر، فكلمة تفهتر الأنا تقدم الآخر، وكلمة انزوى الأنا انتشر الآخر وهكذا دواليك.

ونحن إذ نطرح هذه الأسئلة لا نريد أن نبخس الناس أثمانهم، بل نريد أن نشير إلى "أن حركة الإصلاح الديني لا تنحصر في إصلاح أمور الدين الإسلامي، بل هي أرادت، من هذا الإصلاح إصلاح حال المسلمين، وتطورت لتركز نشاطها في إصلاح وتغيير حال الشعوب العربية، وتقدم إسهاماً فعالاً، خلال تلك الفترة، في تكوين وتطوير الاتجاهات والأهداف الأساسية لحركة التحرر العربية بالذات، وحركة تحرر الشعوب المظلومة" (7).

وهذا منحى سليم إذ تقتضي العلمية والموضوعية أن نقرأ النشاط الفكري ضمن سياقه التاريخي، حتى تسلم هذه القراءة من الإسقاطات المغرضة. إن الفكر الإصلاحى أسهم في إنضاج الفكر التحرري عند هذه الشعوب المستعمرة؛ ولهذا وجدنا الأفغانى لا يطمئن إلى الاستعمار "فلا يمكن أن يصدر عن أعمالهم إلا كل ظلم ولا يمكن أن تكون وسائلهم غير المكر والختل والخديعة. ومن سفه الرأي، أن يطلب الشرقيون من الإنكليز، عدلاً فيهم، أو إنصافاً لهم، إذ معنى المطالبة بهذا، تخلي الإنكليز عن البلاد وتركها لأهلها، وما أبعد؟ وهيهات أن تفعله أو تفكر به دون قوة واتحاد" (8). وبذلك تشكل لدى الأنا صورة فظيعة عن الآخر، صورة سلبية تستمد من القهر والسلب والمغالبة، إنه موقف عدائى ينهل من عدائىة الآخر للأنا.

ثم تتبّه هذا الاتجاه إلى ضرورة تكيف مشروعه الحضارى بحسب المعطيات الجديدة في حياة المسلمين "الفكرة الأساسية التي حكمت كتابات محمد عبده وعلى الأخص بعد عودته من المنفى - هي فكرة: التطور التدريجي البطيء، بواسطة التربية والتعليم والتنقيف وتنقية الإسلام من الخرافات التي لحقت به، وعدم الاشتغال بالسياسة، بل والتعاون مع سلطات